داخل الدولة وخارجها في آنٍ، وكأنّ هذه الدولة الظاهرية جملة أدوات ووسائل لدولة باطنية أخرى أكثر قوةً، وأشدّ خطراً. واتكاءً على تداخل هاتين الدولتين قامت محكمةُ الاستئناف في القاهرة بالتفريق بين حامد أبي زيد وزوجته الدكتورة ابتهال يونس، بحجة كفر الزوج وارتداده عن الإسلام. ولا يتمثّل الأمر، البالغ في خطورته، في قيام فئة بتكفير مجتهد إسلامي وباحثٍ دؤوبٍ عُرِف بالدقة والأمانة، بل يتجلّى الخطرُ الكليُّ في إعطاء التكفير المرغوب طابعاً رسمياً وصفةً تشريعيةً قانونية. فوفقاً للحكم القضائي، الصادر عن محكمة الاستئناف، يغدو نصر حامد أبو زيد كافراً، من وجهة نظر القانون الرسمي، أي من وجهة نظر الدولة والمجتمع ... الأمر الذي يجعل دَمَهُ مستباحاً، وَقَتْلَهُ فضيلةً، وإعْدَامَه واجباً يفتح أمام فاعِلِهِ دروبَ الجنّة والثواب!

تدور الظاهرة في مسار متقهقر، كأنّ الدولة العربية تنسحب من الحاضر وتتقهقر راجعةً إلى زمن سحيق محدّد الملامح، حيث لا مكان لـ «انتصارات المسلمين»، بل المكانُ كلُّهُ للجانب المظلم الذي تراكم في تاريخ المسلمين، أو تراكَمَ في تاريخ الهزائم الاسلامية. وبسبب هذا التراجع المروِّع قد يكون غريباً أن يُبْعث مبدأ «الحسبة» من قبره (بعد أن كان عبد الناصر قد ألغاه في منتصف الخمسينات)، وأن لا يعرف القضاءُ المصريُّ الحديثُ حادثةً مشابهةً لقضية أبي زيد منذ أن تأسّسَ في عام ١٨٨٢، وأن تُصدر محكمةُ الاستئناف حكماً قضائياً ليس من اختصاصها، وأن يتم العَبثُ بمعنى التفريق؛ ذلك أن الزوجة لم ترَ في اجتهاد زوجها كفراً، أو ما هو قريبٌ منه. ويرتفع العبث ويشتدّ حين

الأجهزة المصرية تطارد قائد الجماعة الإسلاميّة، والجهاز القضائي يطارد أبا زيد!

تستصدر مجموعةُ باحثين مِن محكمة الاستئناف (وهي جهاز من أجهزة الدولة) ما يشرّعُ حكم التكفير ويسبغ عليه صفةَ الحقيقة. ويبلغ العبثُ الأسودُ منتهاه حين يُصدر «أمير المؤمنين»، المقيم في ربوع سويسرا، حكمَهُ بإهدار دم نصر أبي زيد، وإهدار دماء المدافعين عنه... كأنّ في أجهزة السلطة الرسمية ما يمتثل إلى رغبة «القائد الإسلامي»، الذي تطارده الأجهزةُ ذاتها!

تكشف السلطةُ التلفيقيّةُ عن ضعفها المتنامي، بقدر ما تكشف عن تزايد نفوذ «القوى المتأسلمة» في المجتمع والدولة معاً، بشكل يقود الدولة إلى البحث عن سلامتها الذاتيّة في معادلات صغيرة وعقيمة وضيّقة الأفق، تنقذ أفرادَ الأجهزة وتبدّد فاعليةَ هذه الأجهزة. ولعل سياسة المساومات الصغيرة هي التي أفضتْ بالسلطة إلى ازدواجيّة قاتلة؛ فهي حديثة وتقليدية في آن: مع التكفير وضدّه؛ وهي تطارد الجماعات الإسلامية المسلّحة، وتحتضن القوى الإسلامية التي لم تتسلّح بعْد؛ وهي التي تخلق شروط نهوض الفكر الديني المنغلق، وتقوم لاحقاً بمطاردته

الحلف الجديد المقيت

حين قرأتُ نبأ الحكم بتفريق حامد نصر أبي زيد عن زوجته، كان ردّ الفعل الأول عندي: هذا دليلٌ جديد على «الرداءة» التي أصبحت تطغى على حياتنا العامة،بمختلف مظاهرها، وعلى كافة الصعد: السياسية والاجتماعية والثقافية.

«رداءة» تتلبّس لبوس العدالة، وتعتمد على الدين وهي تشوّهه.

فنحن لم نعرف الإسلام على هذا الشكل المتزمت الضيّق الذي يصورونه به اليوم. بل عرفنا الإسلام السموح الرّحب الذي يحمل سرّ انتشاره وتقديره عبر الأزمان والأماكن. وهؤلاء الذين ينصّبون أنفسهم قضاة بدعوى حماية الدين، إنما يشوّهونه أبلغ تشويه حين يسوّغون لأنفسهم تكفير الآخرين لمجرّد أنهم خالفوهم الرأي في قضية شرعيّة. والأنكى من ذلك أنهم قد يكونون من أعتى الجهلة حتى في شؤون الدين!

ولكننا في الوقت نفسه لا نعفي السلطة السياسية من محاولة استغلال القضية لتميّز بين نوعين من «الأصوليين» من أجل ضرب أحدهما بالآخر، أو من أجل احتواء «الإرهاب الأصولي» من قبل «الأصولية» المقبولة من لدن النظام المصري.

ونعتقد أن من مهمة المثقفين العرب اليوم أن يقفوا ضد هذا الحلف المقيت الجديد: حلف النظام الرسميّ العربيّ و «المعارضة» الأصوليّة «المهذّبة» والملطّفة والمدجّنة. ولا يسعنا في هذه المناسبة أيضاً إلاّ أن نذكّر بقمع النظام للصحافة ولحرّيتها، وذلك بعد إقراره القوانين التي صدرت مؤخّراً بحقّ الصحافة.

الإرهاب إذن يواجه مثقفي مصر، ومثقفي الوطن العربي، من جهات عدّة: إرهاب من النظام، وإرهاب من بعض الحركات الأصوليّة، وإرهاب من الزواج الخفيّ المعقود بين الطرف الأوّل وبعض «قضاة» الطرف الثاني. وعلى جسد المثقف يتناوب الجلاّدون بالضرب.

إنّ القول بأنّ أبا زيد قد أهانَ الإسلام لا يستحقّ حتى الردّ، ولا يسيء إلى أحد بقدر الإساءة إلى الإسلام نفسه لأنه يصوّره كياناً هشّاً سريع العطب يتفتّت عند أوّل معول سينقض عليه ... هذا، مع تأكيدنا على أن جهد أبي زيد لم يكن الهدم والتجريح – كما ادّعى الجهلة المتلبّسون بالدين زوراً – وإنّما كان يتابع نسقاً احتجاجياً وعقلياً كذاك الذي كان مارسه طه حسين وعلي عبد الرازق في وجه سلطة تقديس النصوص والطقوس البشريّة سعياً إلى ارتقاء هذا الفرد العربي المسلم المقموع مِن غير طرف وسلاح وكنيسة.

تحيّة إلى زَميل الحرف والجهد والتعب المهدور على عتبات الجهل والخرافة، وتحيّة إلى زوجته الدكتورة ابتهال يونس التي تواجه اليوم الظلامَ بسلاح الوفاء والحبّ ... وشراكة العمر الطويل.

سهيل إدريس
جريدة السفير،
منتصف حزيران ١٩٩٥